



أطوار الأدب التونسي الحديث

بقلم أبو القاسم محمد كرو

مقدمة تاريخية :

وكل هذه العوامل كانت الحافز المباشر الذي ساعد على النهوض المبكر واليقظة السريعة في القرن الماضي .
وشرع هذا الباي في القيام باصلاحات كبيرة في البلاد ، كان من اهمها في الناحية الاجتماعية اصداره امرا بالفاء الرفيق وعتق جميع العبيد وغلغ اسواقها للابد ، مع فرض عقوبات على كسل المخالفين لهذا الامر .

وفي الناحية العلمية تاسيسه لمدرسة بارود الحربية عام ١٨٤٠ فكانت النواة الاولى للتعليم الحديث ، ولكل اصلاح اقتصادي وسياسي وعلمي حدث في العقود الموالية ، وكان من ابرز اساتذتها العالم الاديب محمود فبادو الذي كان من دعاة الاصلاح والاخذ بالحضارة الأوروبية ، فزرع افكاره في تلاميذه الذين فامت عليهم نهضة تونس في كامل النصف الثاني من القرن الماضي .

وفي طليعة هؤلاء بالخصوص الوزير محمد حسين ، والمصلح الكبير خير الدين باشا .

وفي هذه المدرسة حدث اول لقاء علمي بين الثقافة العربية والثقافة الاوروبية في تونس ، فقد قام عدد من تلامذتها وأساتذتها بترجمة أكثر من أربعين كتابا من الفرنسية والاطالية والتركية الى اللغة العربية .

ولئن كان معظم ما تمت ترجمته كتباً عسكرية ، فان بينها كتباً اخرى ، كما ان تعليم اللغات لطلبها قد اتاح لهم الاطلاع على ثقافة أوروبا بطريقة مباشرة .

وفي الميدان الاقتصادي ، اسس هذا الباي عدة صناعات حديثة ، وجلب عددا من المصانع ، كان معظمها خاصا بصناعة السفن والأسلحة العصرية ، حيث كان يعمل على بناء جيش قسوي واسطول حربي بلغت قطعه اثنتي عشرة باخرة وبارجة كبيرة .

وهذا الباي هو اول من خاطب الخلافة باللغة العربية، اشعارا لها باستقلاله عنها ، وكانت اللغة التركية هي السائدة في المراسلات الرسمية ، وقد اتاح هذا للغة العربية ان تمارس سيادتها الثقافية لا في العلاقات الخارجية فقط ، بل في التعليم والادارة المحلية كذلك .

واذا كان هذا الباي قد ارهق مالية البلاد بنفقاته الحربية وباسرافه في انشاء مدينة المحمدية ، التي كان يعلم بجعلها فرساي تونس ، فانه قد وضع أسسا قوية للنهضة الحديثة في تونس لا يمكن لمؤرخ أو باحث نزيه أن يفغها أو يقلل من شأنها .

يمتد عمر الادب الحديث في تونس الى مائة واربعين سنة خلت . وعلى التحديد ، كانت بدايته عام ١٨٣٠ حين شرعت تونس تستيقظ على أزيز المدافع والاحتلال الفرنسي للجزائر .

وما هي الا سنوات قليلة حتى ادرك الجميع ان سبات الفرون الوسطى قد انتهى ، وان سلاح العصور الخوالي وكذلك علوم السلف ، التي انحصرت وتجمدت في مجموعة من المعارف الدينية واللفوية ، ومثلها وسائل الحياة والصناعة والزراعة القديمة ، كلها لم تعد فادرة على مجابهة تحديات الحضارة الجديدة ، ومطامع الغزاة المستعمرين .

وكان في طليعة المدركين للاخطار المحدقة ، عدد ضئيل من الادباء والعلماء وبعض الحكام الذين كانت تحركهم ايضا رغبة شخصية في الاستقلال بحكم البلاد .

وكانت تونس في هذا الوقت ولاية عثمانية يتوارث حكمها امراء مستعربون ينحدرون من أصل يوناني ، وقد جدهم الاعلى مع الجيش العثماني في القرن العادي عشر الهجري ، وكان مؤسس حكمهم في تونس هو الحسين بن علي المتولي عام ١١١٧ هجريا ١٧٠٥ ميلاديا . وقد دعيت هذه الاسرة بالحسينية نسبة اليه ، وتلقب افرادها جميعا بلبب الباي لان رتبهم كانت كذلك في نظام العثمانيين الذين زحفوا على البلاد بعد صراع عنيف مع الغزاة الاسبانيين في القرن العاشر الهجري حيث كان آخر الامراء الحفصيين قد استسلم لاسبانيا وخضع لحمايتها .

وفي عام ١٨٢٧ تولى عرش تونس الباي احمد الاول ، وكان شجاعا طموحا ، وماترا بالحضارة الاوروبية عن طريق امة الايطالية الاصل ، فادرك الاخطار المتربصة بالبلاد بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر والانحلال الذي بدأ ينتاب كيان الدولة العثمانية ، وكيف انها لم تحرك ساكنا تجاه سقوط الجزائر ، بينما هي ولاية من ولاياتها .

وكان الشعب العربي في تونس قد اخذ يتعرف على مدى ما بلغته أوروبا من تقدم في العلوم والصناعة نتيجة قرب البلاد التونسية من أوروبا من جهة ، وازدياد عدد التجار والخبراء الاوروبيين فسي تونس من جهة ثانية ، واتساع العلاقات التجارية والبشرية بين الصفتين من جهة ثالثة .

وعندما توفي هذا الباي عام ١٨٥٥ كانت تونس تفكر في تطورات هامة أخرى تم انجازها كلها في عهد خلفه محمد باي وخلفه الصادق باي . ومن أهم هذه الإصلاحات ادخال الطباعة المصرية ، واصدار أول جريدة عربية في تونس ، وهي الثالثة في العالم العربي ، بعد الوقائع المصرية ، والمبشر الجزائريه . ولا ريب ان اخطر ما تم انجازه في تونس خلال القرن ١٩ هو اصدار أول دستور عرف باسم عهد الامان عام ١٨٥٨ ، ثم تكوين مجالس بلدية في نفس السنة . ومجلس الاعيان بعد ذلك .

وحين مات هذا الباي عام ١٨٥٩ وتولى مكانه محمد الصادق باي تعرضت البلاد لهزات عيفة ، زاد من حدتها تدخل الدول الأجنبية في شؤون البلاد الداخلية وارهائ الشعب بالمظالم والضرائب المجحفة ، وازدياد عدد افراد الجاليات الأجنبية خاصة من الفرنسيين والاطاليين وما كانوا يتمتعون به من نفوذ لدى البلاط وامتيازات في الحياة العامة .

ونعرت الأوضاع والعلاقات بين الحكومة والشعب بسبب سياسة الاستبداد المطلق التي كان يمارسها الباي بواسطة وزيره مصطفى خزنة دار الذي اعتمد هو بدوره عصاية من المجرمين لهب واغصاب اموال الشعب ، فلم يكن امام المواطنين - والنحالة هذه - سوى حل واحد هو الثورة فأعلنوها عام ١٨٦٤ بقيادة الزعيم علي بن غداهم ، وكادت الثورة تجتاح العاصمة ، بعد ان اكتسحت معظم انحاء البلاد ، الا ان تدخلت الدول الأجنبية واساطيلها التريصة بسواحل البلاد واساليب الحيلة والغش قد قضت على نجاحات الثورة وزج بقادتها في السجن حيث ماوا تحت سياط التعذيب والجوع .

واغتتم الباي فرصة انتصاره الزيف ، ففعل الحياة الدستورية وتوسع في اقتراض الاموال الأجنبية ، مما زاد في تعكير الحياة الاقتصادية وعجز ميزان الدولة ، وكانت اموال الشعب تسرق ونهرب الى فرنسا بواسطة مجرمين محترفين . فعادت احوال البلاد الاقتصادية الى التدهور من جديد ، وهجر الفلاحون اراضيهم حتى لا تنهب محاصيلها ، وتظاهر التجار بالفقر وانكسرت الصناعات المحلية وتمالت اصوات التذمر من كل مكان .

وكان زعماء الحركة الإصلاحية ، وفي طليعتهم خير الدين ، قد ابعدوا عن الحياة العامة وفرضت عليهم الإقامة الجبرية ، ومنعوا من الاتصال بالشعب .

ولما أدرك الباي ان سياسته وأعمال وزيره خزنة دار قد فادت البلاد الى الهاوية ، لم يجد مفرًا من الالتجاء الى خير الدين لما يعرفه فيه من خبرة ونزاهة ، فاوكل اليه رئاسة الحكومة، فولاهها عام ١٨٧٣ وبقي مدة خمس سنوات حقق فيها المعجزات بالقياس الى ظروف البلاد ونحركات الدول الأجنبية التي كانت تهيب لنفسها الاستيلاء على تونس ، خاصة فرنسا وايطاليا .

وقد شملت اصلاحاته كافة ميادين الحياة . . وفي طليعتها الحياة الثقافية حيث جدد برامج التعليم في الزيتونة ، وضبط شؤونها بجملة من القوانين كما زاد في خزائن كتبها بما وهبه لهامن كتبه الخاصة ، واسس المعهد الصادقي الذي كان يمكن ان يتحول الى جامعة عصرية لولا سياسة الاستعمار فيما بعد ، كما ارسل البعثات العلمية الى اوروبا ونفخ في صور الادباء والمصلحين آمالا جديدة ، فنشطت حركة التأليف وحياء التراث ، وتولت المطبعة الرسمية طبع عشرات من الكتب ، كما فتحت جريدة الرائد الرسمية صدرها للمقالات الأدبية والسياسية .

وأوقف الزيف المالي في اقتصاد البلاد ، وضرب على أيدي الدول الأجنبية العابثة ، ونظم الادارة على أحدث الطرق ، واعاد للفلاحين اراضيهم وشجعهم على احياها ، والزيادة في الانتاج، وعم غراسه الاشجار ، وخاصة شجر الزيتون وأوجد عددا من الصناعات، ودعم الصناعات المحلية بحمايتها من المزاومات الأجنبية .

وهكذا اخذت البلاد تنتعش من جديد وتعود اليها آمالها فسي النهضة والتقدم والرخاء .

ولكن كيف تسكت الدول الأجنبية وعصاية الخونة الذين ضاعت منهم غنائم الحكم الفاسد المستبد ، لا سيما وقد عمد خيرالدين الى محاكمة راس الفساد الوزير خزنة دار ومصادرة امواله وأملاكه رغم أن بنت خزنة دار كانت زوجة لخير الدين ؟

وفي عام ١٨٧٧ لم يعد امام خير الدين مجال للعمل حيث كثر التصادم بينه وبين الباي ، وحيث نجحت دسائس الاعداء في افناع الباي بافلاته فاعفي من مهامه وفرضت عليه الإقامة الجبرية ، وبعد عام سمح له بالسفر خارج البلاد فاستقر في الإسنانة حيث دعي لتولي منصب الصدر الأعظم ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا، لان النظم الفاسدة لا يمكن اصلاحها وانما تترك الى ان تنهار ، كما اشار الى ذلك الجنرال ديفول .

وبعد عامين ونصف من خروج خير الله من تونس ، وفصمت البلاد فريسة الغزو والاحتلال الفرنسي ، ونمت بذلك نهاية الصراع الأجنبي على تونس ، وقد فرضت فرنسا وجودها بالحديد والنار ، ونفقت مع الخونة ما كانت تريد وتطمح اليه .

وبين عام ١٨٨١ بداية الاحتلال وعام ١٩٥٦ بداية الاستقلال مرت البلاد تحت الحكم الاستعماري بالراحل الكبرى التالية :

أولا - من عام ١٨٨١ الى بداية الحرب العالمية الاولى .
ثانيا - من نهاية الحرب الاولى الى بداية الحرب العالمية الثانية .

ثالثا - من نهاية الحرب الثانية الى الاستقلال عام ١٩٥٦ .
وتاريخ الاستعمار الفرنسي لتونس ، معسوف في جملته ، ومراحله هي نفس المراحل التي كان لها تأثيرها في قصة الادب التونسي الحديث ، لذا اکتفي بهذه المقدمة التاريخية المختصرة وانتقل راسا الى الادب العربي في تونس ، متخذا من كتابه وشعرائه مجالا للقول وميدانا للعرض . وسيكون عرضنا للتعريف والاطلاع اكثر منه للتحليل والنقد ، اذ ان المقام ليس مقام فحص ودراسة وتمحيص ولا هو مقام بحث في التيارات والمذاهب التي مارسها الشعراء والكتاب في تونس او قلبوا في احوالها . فان ظروفهم التاريخية بالخصوص كانت تحول بينهم وبين ما قد نطالبهم به من المفاهيم والمقاييس او المذاهب والتيارات التي شاعت في هذا القطر او ذلك الجيل ، من أقطار العالم وأجيال العرب المعاصرين . ومع ذلك ، فاننا لن نبخس شعراء تونس وكتابها مكانتهم الأدبية بين أدباء العرب الآخرين ، ولا دورهم التاريخي العظيم في ايقاظ الشعور الوطني ، والمساهمة لا في النهوض الفكري والاجتماعي والاقتصادي لبلادهم فحسب بل وفي تحريرها من كابوس الظلم الملكي أولا والاستعماري ثانيا ، والانحرافات الأخرى ثالثا .

واذا كان لي أن أسف على شيء ، وان أعترت عن امر ، فانما هو عن هذا النطاق المحدود الذي لا يسمح بالتعرف على جميع الشعراء ولا جميع الكتاب . لذلك سأقتصر على عدد قليل منهم ، وعلى نماذج محدودة لهم دون ان يكون في ذلك أية عاطفة خاصة او حكم مسبق .

وبعبارة أخرى انني هنا في موقف التعريف بالادب العربي في تونس ، وليس بالادباء انفسهم ، رغم ما قد يكون من تفاوت فسي الحديث عن هذا او ذاك ، وفي الاختيارات والاشارات .

مراحل الادب التونسي

ان مراحل الادب المعاصر في تونس هي اولا مرحلة فجر اليقظة الاولى بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٨١ .
ثانيا - مرحلة صدمة الاحتلال وتيقظ الضمير الوطني من عام ١٨٨١ الى الحرب العالمية الاولى .

ثالثا - مرحلة الوعي الوطني والثورة الأدبية عن نهاية الحرب العالمية الأولى الى الحرب العالمية الثانية .
رابعا - مرحلة الحصاد الوطني ومعارك الاستقلال من نهاية الحرب الثانية الى اعلان الاستقلال عام ١٩٥٦ .
وتأتي بعد ذلك المرحلة الحاضرة ، مرحلة الاستقلال والحكم الوطني .

وحدثني هنا عن المراحل الأربع السابقة التي تتوجت بالاستقلال

المرحلة الأولى

ان المرحلة الأولى التي انتهت ببداية الاحتلال الاجنبي عام ١٨٨١ هي المرحلة التي كانت الثقافة فيها ثقافة تقليدية تقوم على برامج التعليم الديني في جامع الزيتونة ، ولم تكن هذه الثقافة لتسمح على ما هي عليه في ذلك الحين من جمود وفضور - بظهور أدباء جهيرين ، ذوي افكار نابغة او تجديد أدبي ، واذا كنا نشر على قصائد او مقالات تحمل افكارا عصرية ، فان أصحابها في الغالب قد كونوا أنفسهم بأنفسهم ، ولم يكن لما تعلموه في الزيتونة من اثر يذكر ، اللهم الا من حيث علوم البلاغة واللغة ، اما الادب بفنونه التطبيقية ، فلم يكن له وجود حتى بداية الحسب الأولى .

على أن أدباء هذه المرحلة قد تلقوا افكارهم من رحلاتهم الخارجية لا سيما في أوروبا ، ومن المطبوعات الشرقية التي بدأت تصل لتونس من مصر ولبنان كما كانت العلاقات بين تونس وهذين القطرين بالذات وثيقة منتظمة ، بل ان عددا من اللبانيين والمصريين قد عمل في المؤسسات التونسية وكان بينهم بالخصوص من يقوم بالترجمة ، كما كان فيهم أدباء لهم شأنهم في النهضة العربية أمثال احمد فارس الشدياق ورشيد الدحداح وحمزة فتح الله .

ولست اشك في ان اوضاع تونس المتخلفة في القرن الماضي وما أمتاز به حكم البايات من فساد وظلم واستبداد ، كان هو الآخر محركا ذاتيا كبيرا .

فلا غرابة والحالة تلك ان وجدنا الأدباء في هذه المرحلة يطالبون بالشورى ، ويحثون على العدل ، واصلاح الامور ، ونشر العلم والصناعة والاخذ بأسباب التطور ، ومناصرة الدين يعملون على تحقيق هذه الغايات .

ونظرا لظهور الطباعة في تونس عام ١٨٦٠ ، وصدر جريدة الرائد التونسي في العام الموالي أسبوعية اخبارية جامعة ، فاننا جديدا قد ظهر في الادب المحلي هو الكتابة الصحفية ، ولئن لم تعط ثمارها البانعة وتنوع اساليبها ومجالاتها الا في المراحل الموالية، فانها قد هيأت بداية حسنة للاجيال اللاحقة .

ونكتفي هنا بذكر أهم الأدباء والمفكرين الذي تركوا آثارا هامة وكتبا مشهورة الى اليوم ، فضلا عن الشعراء الذين ساهموا بشعرهم او توجيههم للاجيال من بعدهم .

فمن النوع الاول المؤرخ الفذ احمد بن ابي الصياف النوفسي سنة ١٨٧٤ والذي كان من دعاة الشورى والحرية والتطور ، والذي يشهد كتابه « اتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الامان » بما كان عليه من اصالة ادبية وتحرر فكري ، وشفق بالحرية والديمقراطية والتطور .

ويأتي بعده الجنرال خير الدين ، صاحب كتاب «افوم المسالك»، الذي هو خلاصة رحلاته في الممالك الاوروبية ، والذي امتسازت مقدمته الطويلة بافكاره الاصلاحية ودعوته الجريئة الى ضرورة النهوض العاجل بالبلاد الاسلامية قبل ان يستغل العدو احوالها المفككة ويتمكن من التحكم في مصيرها ، وقد آيات الايام صدق حسنه ، وغفلت حكام عصره عن الاستماع الى نصائحه . ويلي ايضا العلامة سالم

بو حاجب الذي يعتبر المدون الحقيقي لافكار خير الدين حيث كان من اعلام الزيتونة المقتدرين في اللغة والتاريخ بينما كان خير الدين يلقي اليه بافكاره المستنيرة بثقافته الفرنسية والتركية ، فيصوغها الشيخ بو حاجب في قالب عربي . ولا شك ان كلا منهما قد تأثر بالآخر وتفاعل معه .

ويأتي بعد خير الدين وسالم بو حاجب الجنرال محمد حسين الذي كان احد أقطاب النزعة الاصلاحية في جماعة خير الدين ، وقد ترك رسائل مطبوعة ، أهمها رسالته في تحرير العبيد .

واما محمد بيرم الخامس (١٨٤٠ - ١٨٨٩) فهو شاهد عصره ، وعنوان مجده وفكره ، اذ ترك من الآثار الدالة على مقامه الممتاز بين أفرانه . واذا كان فصير الباع في الشعر على ندرته نظمه له ، فانه لكاتب بارع ، ومؤرخ ذكي ، ورحالة جواد وصحفي مفسر . وله كتب ورسائل عديدة أهمها كتابه : « صفوة الاعتبار بمسودع الامصار والاقطار » ويقع في خمسة اجزاء ، الف الاول والثاني منها في تركيا ، فبيل احتلال تونس واثالثت بعد الاحتلال ، والرابع والخامس بعد استقراره في مصر ، حيث اصدر جريدة عاشت خمسة اعوام . وله رسالة في السياسة الشرعية خاطب بها خليفة عصره السلطان عبد الحميد ناصحا له بالاخذ بأسباب التقدم والعلم والحرية والعدل ، وقد ترجمت فور صورتها للفرنسية والانكليزية ، مثلها في ذلك مثل مقدمة كتاب خير الدين السالف الذكر . ومن رعييل هذه المرحلة في سنواتها الاخيرة : الاديب الحضيف محمد السنوسي المتوفي عام ١٩٠٠ والمولود عام ١٨٥٠ . وقد امتاز السنوسي بعلاقاته بالافقاني ومحمد عبده كما امتاز بمناصرته للاصلاح ومقاومة الفساد والاستبداد اولا والاحتلال والاستعمار بعد ذلك ، وكتبه كثيرة متنوعة بعضها مطبوع وبعضها الآخر وهو الاهم ما زال مخطوطا الى اليوم ، ومن أهمها كتاب مجمع الدواوين التونسية ، ورحلته الحجازية . وعلى ذكر هذه الرحلة نقول ان ادب الرحلات قد ازدهر في تونس خلال القرن الماضي ، ففضلا عن الرحالة الكبير محمد بن عمر التونسي المتوفي (١٨٥٧) صاحب كتاب « تشييد الاذهان ، بسيرة بلاد العرب والسردان » . - وقد كان الرحالة التونسي من دعائم النهضة الثقافية المصرية في عصر محمد علي - فضلا عن هذه الرحلة هناك رحلات اخرى دوتها تونسيون اخرون ، وليس كتاب خير الدين « افوم المسالك » سوى واحد منها ، وكذلك كتاب صفوة الاعتبار لمحمد بيرم الخامس المتقدم ذكره ، وكذلك وصف كتبه الجنرال حسين لرحلة الباي محمد الصادق للجزائر عام ١٨٦٠ حيث تقابل مع نابليون الثالث ، والاستطلاعات الباريزية لمحمد السنوسي .

ومن أهم الرحلات في هذا العهد رحلة الشيخ علي الوردانسي الى الاندلس وما تضمنته من وصف مفصل للمخطوطات العربية في الاسكوريال .

ومن أدباء هذا العصر او مفكره على الاصح الشيخ سليمان الحرائري (المتوفي ١٨٧٧) الذي كان اول من دعا الى تعليم المرأة ، وعالج وضعها الاجتماعي في منتصف القرن الماضي ، كما الف في الفلك والعلوم الطبيعية ، وكان يكتب ويؤلف بالعربية والفرنسية ، وعاش زهاء الثلاثين سنة الاخيرة من عمره في باريس حيث اصبح استاذا للعربية في معهد اللغات الشرقية ، وترأس تحرير جريدة برجيس باريس مدة ثماني سنوات .

٢ - وفي النهاية نذكر استاذهم جميعا الشيخ محمود فبادو (١٨١٢ - ١٨٧١) الذي ترك ديوانا مطبوعا يقع في جزئين وعشرات المقالات والقصائد الطويلة الاخرى . فالى هذا الرجل يعود الفضل الاول والدور البارز في غرس بذور الاصلاح في عقول الأدباء والحكام والعلماء الذي ظهروا في عصر خير الدين وبينهم خير الدين نفسه حيث كان تلميذه في المدرسة الحربية عام ١٨٤٠ .

ونبدأ الآن ببعض النماذج لهذا العصر وأولها قطعة من قصيدة للشاعر قبادو بحث فيها على العدل ، قائلا :

العدل عهد خلافة الانسان
وتمدن البشر اقتضى ايلافهم
والعدل كل العدل يقصر دونه
والراي ان لم يصفعن كيد الهوى
ومداد ظل الامسن والعمران
بتعاضد من دائن ومسدان
راي اللبيب وفطنة اليقظان
لم تبد فيه حقائق الاعيان

ومن قصيدة اخرى بحث بها على اخذ العلوم والصناعة من اوربا لكي نهض ونحمي كياننا . وهي طويلة نكتفي منها بهذه الايات :

فمن لم يجس خبرا اوربا وملكها
فذاك في كن البلاهة داجسن
ايجمل يا اهل الحفيظة انهم
لقد فاتنا في بادي الراي صونا
تعاقد شوطا مقدم ومقهقر
لعمري ليس الميت من اودع الثرى
لقد قتلوا دنيا الحياتين خبرة
ولم يتغلغل في المصانع فهمه
وفي مضجع العادات يلهيه حلمه
يزوننا فخرا . لنا كان فخمه
واشفي لعمري ان يفوت ختمه
اذا لم يعن منه التفات يزمه
ولكن مطبق للفنى بان عدمه
فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

ومن شعر محمد بيرم او قل من نظمه المعبر عن نزعته الاصلاحية وغيرته الدينية واخلاصه الكبير لامته وخلافته الاسلامية ، هذا النداء الذي خاطب به المسلمين في عصره ، عام ١٨٧٦ مستنكرا ما هم عليه من تقاعس عن الاخذ باسباب الحضارة والصناعة والمناعة والقوة

يا امة الاسلام صونوا عزكم
يا امة الاسلام احيوا ذكركم
يا امة الاسلام نموًا صيتكم
يا امة الاسلام حوطوا امركم
يا امة الاسلام عوا واستيقظوا
يا امة الاسلام زيدوا نروة
يا امة الاسلام شيّدوا مجدكم
يتعاضد وتمدن وتنافس
بتآلف وتوادد وتآسس
بمعارف وصنائع ومجالس
بتشاور وتدبير وحوارس
ان الهلاك مسارع للناعس
بتعاون ومصانع ومفارس
بتناصر وتناصر وتجانس

ويقول الشيخ محمد الاصرم المتوفي ١٨٦٠ ، ناصحا الباي احمد الاول بالتزام العدل :

العدل اساس للنوام مصيره
والنفس تآبى ان تضام جبلة
والبيت لا يوسي بغير عماده
والظلم بنيان بغير اساس
فاكتل لها ما كتله للناس
فاجمع اذا اوتاده بسياس

اما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الجد ، المتوفي عام ١٨٦٨ ، فله قصيدة على طريقة القدماء في الفخر ، منها هذه الايات :

دعني الى العلياء همة راغب
ويخشى مذلات التواني مبادرا
وما العز الا في اكتساب مآثر
برى الحزم في الامال اول واجب
الى نيل عز فوق هام الشناخب
وما الذل الا في الاماني الكواذب

ومن نثر هذا العصر الذي يمثله المؤرخ احمد ابن ابي الضياف هذه الكلمة الموجزة التي قالها تحية للعلم التونسي حين اتخذه لأول مرة بدلا من العلم العثماني ، ورفعته المسارك عام ١٨٤٠ بمحضر الباي والوزراء وامراء الالوية واعيان البلاد ، ولعلها اول نص قيل تحية للعلم في الادب العربي الحديث ، قال ابن ابي الضياف : « الحمد لله الذي جعل للراية شاننا . ولف بين قلوبنا فاصبحنا بنعمته اخوانا . وعلى حماية وطننا وطاعة اميرنا اعوانا . نفضح لذلك شيوخا وكهولا وشباننا .

ايها الوزراء والامراء واعيان الكبراء . وحملة السيوف ، ورؤساء الصقوف : ان اللواء عماد معلق به الهمم والارض ، وقدر محبته العشيبة والارض ، فلذلك كانت نغرتنا عليه واحدة ، وقلوبنا على اعزازه متعاضدة ، اذ هو مظهر فخرنا وبلادنا تربة اباينا ومنبت اولادنا ، محوطة بصدورنا من مضرة اعدائنا ، ونفوس الاحرار تموت في رعي الجوار ، اخرى في الدفاع عن الوطن والدار ، والاعتماد على الله شعارنا ونعم الشعار . وواضح من هذه النصوص ، نثرا وشعرا ، ان اصحابها لم يتخلصوا من رواسب السجع القديمة ، وفوالب العروض المألوفة ولكن افكارها جديدة ، ولقنتها نقية ، ومعانيها واضحة بصسورة عامة .

المرحلة الثانية

اما المرحلة الثانية التي بدأت بالاحتلال فانها تعتبر امتدادا لهذه المرحلة وتمهيدا للمرحلة الثالثة ، ففيها من خصائص الاولى ، حفاظها على القديم ، لا سيما في قوالب الشعر وتقليده ، وفيها - مع ذلك ارهاصات للجيل الموالي ، خاصة في النثر .

ومن هذه الارهاصات ، محاولة بعضهم كتابة القصة ، كما فعل الاديب صالح سويسى ، او الخروج بالشعر الى اوزان الموشحات في مواضع عصرية ، كما فعل الشيخ محمد النخلى والشيخ محمد الخضر حسين . الا ان هذا لم يخلق القصة ولا التجديد في الشعر . ومع ذلك فقد حدث تطور في النثر ، كنتيجة منطقية لكثرة الصحف وتنوعها ، فبعد ان كانت جريدة « الرائد التونسي » هي الصحيفة الوحيدة لمدة ربع قرن ، ظهرت جريدة الحاضرة عام ١٨٨٨ والزهرة ١٨٨٩ والحقيقة ١٩٠٧ وهي اول جريدة يومية ، وكانت الجرائد السابقة اسبوعية .

ثم ظهرت المجلات لأول مرة ، وكان اولها مجلة السعادة العظمى ، عام ١٩٠٤ ، ثم مجلة تحقيق الامل عام ١٩٠٥ ، ثم مجلة خير الدين سنة ١٩٠٦ ، وظهرت الصحف الفكاهية الانتقادية . كذلك العلمية الرصينة ، وقد نتج عن كثرة الصحف وتنوعها ظهور المقالة الادبية والسياسية والاجتماعية ، كما ظهر فن جديد هو المحاضرات التي لم تكن معروفة من قبل ، والتي اطلقوا عليها اسم المسامرات حتى عهد قريب . وكان الشيخ محمد الخضر حسين المولود ١٨٧٦ والمتوفي ١٩٥٨ اول من القى محاضرة عمومية بروح وطنية وكان موضوعها دالا عن ظروفها واتجاه صاحبها الاسلامي والوطني معا : فقد كانت تحت عنوان « الحرية في الاسلام » . ورغم ان النشاط الوطني كان في بداية عهده ، فان العاملين فيه كانوا كثيرين ، وكانوا يعبرون عن افكارهم وارآهم بخطبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم . . . ومن ابرز الكتاب الصحفيين في هذا العهد علي بوشوشة ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد الجعائبي والهاشمي المكي ، والبشير الفورتى .

اما الكتاب والخطباء السياسيون فابرزهم علي باش حانية (ت ١٩١٨) وعبد العزيز الثعالبي (ت ١٩٤٤) الذي يعرفه كثير من رجالات الشرق وادباء العراق ، بوجه خاص حيث كان استادا للفلسفة والتشريع الاسلامي في جامعة آل البيت ببغداد وقد حياة الرصافي بقصيدة بديعة ، مطلعها :

اتونس ان في بغداد قوما
تصرف قلوبهم لك بالسوداد
ويجمعهم واياك انتساب
الى من خص منقظهم بضاد
ودين اوضحت للناس قبلا
نواضع آية سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة اهل قريسي
وان قضت السياسة بالعباد

اما الشعر ، فقد واصل رسالته الاولى من الدعوة للاصلاح والنهوض بالمجتمع والحث على التعليم والتقدم الاقتصادي وعالج موضوعات جديدة اوجتها له ظروفه الجديدة ، من ذلك دعوته الى احياء اللغة العربية وتطوير طرق تعليمها في الزيتونة كما نادى بذلك الشيخ

الخضر حسين ، واهتم صالح سويسى (المتوفى ١٩٤١) بالجوانب الاخلاقية والدينية ، ودعا الى التمسك بتعاليم الاسلام وندد بتفكك المسلمين ونفسخهم وانهلال عرى الوحدة والتضامن بينهم .

وقد شاركه في هذه العواطف جميع معاصريه من الادباء ، شعراء كانوا ام كتابا ، ذلك ان النزعة الاسلامية كانت هي الغالبة على جميعهم . لهذا كانت الصحافة تولي عناية خاصة لاخبار الدولة العثمانية ، كما اظهر الشعراء ميولا صريحة نحو عاصمة الخلافة ، وتماطفوا معها في جميع احدائها ، لا سيما مع الحرب الطرابلسية التي هزت مشاعر الجميع ، وبدلوا لها بسخاء .

ويمكن القول بان اساليب الشعر بقيت كما هي ، دون اي تغيير رغم تعدد اغراضه ، ودخوله معممة الحياة الاجتماعية والسياسية . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ، وكانت البلاد قد فرضت عليها حالة الحصار ، وعطلت فيها الاحزاب والصحف الوطنية منذ عام ١٩١٢ ، فاستسلم الجميع للركود . حتى اذا انتهت الحرب ، وخرجت منها الدولة العثمانية مهزومة محطمة ، وكان كثيرون ينتظرون انتصارها ، خابت الامل في اي نصر او انفراج يأتي من الخارج واصبح متحتما الاعتماد على النفس .

المرحلة الثالثة

وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت النزعة الوطنية التي تنفنى بتونس وحدها وتنادي بتحريرها واستقلالها دون اي ارتباط عاطفي مع دولة اخرى . لكن مشاعر التضامن مع الشعوب العربية بالخصوص ظلت حية واضحة يتفنى بها الشعراء ، ويردها الكتاب ، لا سيما قضية فلسطين التي اخذت مكان الصدارة من القضايا والموضوعات العربية ، وحل الاهتمام بها محل الاهتمام السابق بالخلافة ومشاكلها المتعددة .

وقد تميزت هذه المرحلة الثالثة بتطورات خطيرة في الادب العربي بتونس . فقد ازداد صلة بالادب العربية الواردة من المشرق ومن المهاجر الامريكية واصبح في امكان عدد متزايد من الادباء التونسيين ان ينهلوا مباشرة من الثقافة الغربية بعد ان انتشرت الفرنسية بينهم بواسطة الصادقية والمدارس الفرنسية . وكثر احتكاكهم بالجاليات الاوربية التي تجاوز عددها ربع مليون عند انتهاء الحرب الثانية كما اعيدت حرية الاحزاب والصحافة فانطلقت الاقلام تصول وتجول ، وقد نضج فكرها ، واشتد عودها .

وظهر جيل جديد من الادباء ، امتاز بثقافته الادبية العميقة وبالفاكاره المصرية ، وبثورته الجارفة على الاستعمار ، والرجعية وعلى التقاليد والجمود .

وما كادت سنة ١٩٢٥ تنتهي حتى كان هناك اكثر من ثورة في الفكر والشعر والمجتمع قد اعلنها شباب الادباء ، وفي طليعتهم سعيد ابو بكر وابو القاسم الشابي ، والظاهر الحداد ، ومحمد البشروش ، وزين العابدين السنوسي ومحمد العربي ، وعلي الدوعاجي ، والهادي الصبيدي ، وبيرم التونسي ، ومحمد البهلي النبال . فقد نبذ هؤلاء لا افكار القدامى فقط ، ولكن نبذوا ايضا اساليبهم في التعبير وطرائقهم في طرح القضايا ومعالجة المواضيع .

ورغم ان جميع هؤلاء - تقريبا - قد تعلموا في الزيتونه ، الا ان الفضل في ثورتهم يعود الى مواهبهم ومطالعاتهم اكثر من اي مصدر آخر .

والحق ان بداية الادب التونسي الحديث التي تتسم بروح العصر وتجسم حقيقته ، قد كانت على ايدي ادباء الثلاثينيات وكفي دليلا على ذلك ان القصة التونسية قد ولدت من اقلامهم ، وان العمال الكادحين قد كانت حياتهم ومشاكلهم الشغل الشاغل لهذا الجيل من الادباء ، وان المرأة قد بلغ دفاعهم عن حقوقها وحريتها بل وعن مساواتها التامة بالرجل حد الاستشهاد من اجلها .

ولئن حاول مجاراتهم في بعض ما ذهبوا اليه جيل الادباء المخضرمين الذين عاشوا المرحلة السابقة الا انهم لم يبلغوا شأوهم رغم

ما كان للمخضرمين من المكانة المرموقة في المجتمع ، والنفوذ الادبي في الحياة الثقافية .

واعظم ما سجله التاريخ لجيل المخضرمين ، امثال محمد الشاذلي خزنة دار ومصطفى آخه وصالح سوليسي ، وبلحسن بن شعبان وحسين الجزيري اعظم ما سجله التاريخ لهؤلاء هو وطنيتهم المادقة ودفاعهم عن المناضلين السياسيين والقضايا الوطنية عامة . ولكنهم فيما عدا ذلك بقوا سجناء التقاليد ، مجرورين دائما الى السوراء

ونعود الى جماعة الثورة او دعاة الجديد ، فنرى زعيمهم الشابي يقف عام ١٩٢٥ مع العمال في كفاحهم ، ويهتف بانتصار الشعب حين لم تكن هناك بارقة امل واحدة تنبئ بذلك ، فقد زج بقائدهم محمد علي في السجن ، وحكم عليه بعشر سنوات يقضيها في المنفى بعيدا عن ارض الوطن . ومع ذلك نرى الشابي يقول :

ان ذا عصر ظلمة غير انسي من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شمبي ولكن سترد الحياة يوما وشاحه

وقال قبل ذلك ، مشيرا الى ما لقيه محمد علي من اضطهاد وارهاق وكبت :

كلما قام في البلاد خطيب كلما قام في البلاد خطيب
اخذوا صوته الالهى بالصم اخذوا صوته الالهى بالصم
البسوا روحه قميص اضطهاد فاتك ، شائك يرد جماحه

ويعبر في نهاية القصيدة نفسها عن روح الصمود والتضحية ، والاصرار على الكفاح حتى النصر او الاستشهاد من اجل الوطن فيقول :

انا يا تونس الجميلة في لـج الهوى قد سبحت اي سباحه
شرعتي حيك المميـق وانسي تلوقت مره وقراحه
لا ابالي وان اريقـت دمانسي قدماء العشاق دوما مباحه

وكان الشابي حين كتب هذه القصيدة في السابعة عشرة من عمره وفي نفس السنة قال قصائد اخرى عن حركة محمد علي ، واعلن عن اتجاهه الاجتماعي في الابيات التالية :

لا انظم الشمـر ارجو به رضا الامير
بمدحـة او رئساء تهدي لرب السرير
حسبي اذا قلت شعرا ان يرتضيه ضميري
* * *
ما الشمـر الا فضاء يرف فيه مقالـي
فيما يسر بسلاـدي وما يسر المعالي
وما يثير شموري من خافقات خيالي

وقد استمر الشابي حتى آخر لحظة من حياته - نابئا على منهاجه ذلك .. فما مدح او تزلف او تكسب بشعره قط .

وفي عام ١٩٢٩ ، اي عندما بلغ الشابي العشرين من عمره ، نشر كتابه « الخيال الشعري عند العرب » بعد ان اتقاه بشكل محاضرة ، فاحدث ثورة ادبية هائلة ضد جميع المفاهيم والاساليب والمناهج السائدة في الادب العربي يومئذ فتصدت له الرجعية الادبية وكان نفوها كبيرا ، في الحياة الثقافية والاجتماعية ، ولكن ثورة الشابي وافكاره قد كتب لها الانتصار اخر الامر ، لان الشابي كان يمثل المستقبل المرجو للوطن وللادب العربي معا .

ولان الشابي وجيله كانوا يحملون اعباء التحرر الفكري والاجتماعي الذي هو اساس كل نهضة وكل تقدم .

واليكم هذه العبارة القصيرة التي جعلها الشابي شعارا لكتابه بل ثورته :

« لقد اصبحنا نطلب حياة قوية مشرقة ، ملؤها العزم والشباب ، ومن يتطلب الحياة فليمد غده الذي في قلب الحياة ، اما من يمد امسه وينسى غده فهو من ابناء الموت وانضاء القبور الساخرة . » !!

ويمكننا ان نؤكد ان كتاب الشابي فضلا عن ثورته الادبية كان طليعة ثورة سياسية واجتماعية قادت البلاد في المراحل الموالية من مجتمع القرون الوسطى الى مجتمع العصر الحديث .

وكمثل الشابي في صدق المبادي وثورة الفكر ، كان رفاقه الآخرون وخاصة منهم حبيب العمال وتصير المرأة شهيد الفكر الحر المرحوم الطاهر الحداد .

فهذا الاديب المناضل هو الوحيد بين كل ادباء تونس الذي نشأ في مجتمع الكادحين ، وانقطع لهم ، وسخر مواهبه ووقته وحياته من اجلهم واذا كنتم تعرفون الكثير عن الشابي ، فان الحداد لا يكاد يعرفه احد ، حتى في موطنه الاصلي ومسقط رأسه .

واذا كان الشابي مهجريا في اسلوبه شعرا ونثرا فان الحداد اجتماعي واقفي في كليهما . وهو في النشر كاتب ممتاز ، اما شعره فهو طرفة الحارة ومعانيه الصادقة وموضوعاته الحية تغطي اسلوبه التقليدي واحتناؤه للقدمين .

والحداد الذي مات صغيرا كالشابي ، وبعده بعام واحد اي في عام ١٩٢٥ وعمره سنة وثلاثون عاما ، يمكن اعتباره مفكرا اجتماعيا من طراز خاص . وعلى حد قول السيد عز الدين بلحاج الذي تعرف اليه شخصيا : فان الحداد ، في تاريخ الفكر العربي بتونس ، يأتي بعد العلامة ابن خلدون مباشرة .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عنه باكثر من ذلك ، ولكنني اضيف : انه كان القلم الكاتب واللسان الناطق والتاريخ المدون للحركة العمالية التي قادها محمد علي ، فعندما ابعث محمد علي عن البلاد ، سجل الحداد اعماله كلها مضافا اليها محاكمته ورفاقه ، مع صورة حية عن مجتمع العمال التونسيين ومشاكلهم ، مقرونة بافكار الحداد الاقتصادية والاجتماعية الاشتراكية في كتابه العظيم « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » الذي نشره عام ١٩٢٧ فصدرته سلطات الاستعمار فور صدوره . وعندها التفت الى النصف الآخر المشلول من الشعب بعد العمال ، اعني الى المرأة ، فتمتع اوضاعها الاجتماعية والتشريعية فكانت حصيلة ذلك كتابا كاملا دعاه باسم « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » وقد تفوق فيه على جميع دعاة تحرير المرأة في العالم العربي من قاسم امين ونظيرة زين الدين الى الرصافي والزهراوي وغيرهما . ويكفي ان نشير هنا الى انه قد قسم كتابه الى قسمين قسم تشريعي واخر اجتماعي ، فعالج في الاول مكانة المرأة في الشريعة الاسلامية . وخلص آرائه في هذا القسم التشريعي ان الاسلام قد حرر المرأة ورفع منزلتها ، وان الحقوق التي اعطاها الاسلام للمرأة انما كان يريد ان يهد بها الى المساواة التامة التي هي غاية مقصودة ضمنا في التشريع الاسلامي ولكن الرجال لم يعطوا ذلك التطور فقط بل ارجعوا المرأة الى الوراء ، وحرموها من ممارسة كثير من الحقوق التي خولتها لها الشريعة الاسلامية .

اما القسم الاجتماعي فهو وثيقة تاريخية هامة عن اوضاع المرأة العربية في عام ١٩٢٠ وهو العام الذي صدر فيه كتابه العظيم . اما نزعته الوطنية وآراؤه الحرة في الاسلام والتطور والحضارة المصرية ، فنكتفي بشواهد قليلة من شعره عنها . يقول بعنوان ايها الشعب :

ايها الشعب . قم للمجد متحمسا حرب الحياة ، فلا عز بلا نصب هذا زمان يموت الجاهلون به والخائفون بلا حد لقتصب قوم .. قد انكرونا في كرامتنا وجاهرونا بنجوى الامس في الحجب

قالوا خليط بلا جنس مواطنهم
قالوا : حمايتنا اضحت مفوفة
لقد اهانوا ، وليس المسلمين فقط

الى ان يقول :

ياشعب تونس ، يا شعب المجادة لو
خلقت للموت في حفظ الكرامة لا
وفي قصيدة اخرى يقول :

لا تصدق يا شعب ان رقى الفر
امة الضرب لا تزال لعيسى
وبعوى اليهود زادوا ارتباطا
كلهم في تمدن العصر فآزوا
افهل كان دين احمد يخشى

ارض محللة ميثورة النسب
لديهم عن هدى الاسلام .. واعجبني!
بل الحقيقة والتاريخ بالكذب

وعيت ماضيك المسطور لم تهب
للجن ، تلبسه عارا مع الحقب

ب كفر يبدد السلمينا
وببوذا اليابان في المؤمنينا
بعد نيل العلى مع السابقينا
لم يصبهم في الدين ما يعترينا
دون كل الاديان في العالمينا

اما سعيد ابو بكر المتوفي ١٩٤٨ فيمكن اعتباره من مدرسة الحداد في دفاعه عن المرأة ، وتصويره لمآسي حياتها في المجتمع ، واهتمامه بالحرورين والتساء من اخوانه المواطنين ، مع محاولاته ان يسير على منوال المدرسة المهجرية في قوالبه الشعرية ، واعتماده بالخصوص على اوزان الموشحات للتعبير عن اغراضه الاجتماعية ، الا انه كان ضعيفا في ثقافته الادبية والشعرية بوجه خاص ، فجاء شعره ضعيف النسيج متوسط المباني ودبوانه « السعديات » ، ثم مجموعته « الزهرات » وثيقتان تاريخيتان للحياة الاجتماعية والسياسية في عصره اكثر منهما اعمالا ادبية خالدة .

وفي ميدان القصة يعتبر الدواعي المتوفي عام ١٩٤٩ رائدها الاكبر ومؤسسها الحقيقي ، لا تكتفيا وموضوعيا فحسب بل فنيا وابداعيا وتاريخيا .

اما زين العابدين السنوسي الذي ولد في نفس العام الذي مات فيه والده محمد السنوسي المتقدم ذكره ، فانه كان كاتباً رائدا في كل ما عالجه من مواضيع ، وانجزه من اعمال ثقافية وصحفية كبيرة . ونحن وكل الدارسين لادب هذه المرحلة مدينون له بما تركه حين مات عام ١٩٦٤ من آثار جلية اهمها مجلته العالم الادبي وكتابه عن الادب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري ومنشوراته الكثيرة الاخرى . وهو اول من جعل مجلته واسطة فكرية بين الشرق والغرب ، كما كانت نافذة مفتوحة على الثقافات العالمية .

ولا نستطيع ان نترك الحديث عن ادباء بين الحرييين دون ان نقول كلمة عن شاعر آخر من رعييل الثائرين الجدد ، وان اختلف عنهم في منزعه الاجتماعي وطريقته الشعرية .. لكنه يمثل اتجاها جديدا لا على الاجيال السابقة فقط بل والاجيال الموالية كذلك .

وهذا الشاعر هو محمد العربي الجزائري الاصل والمولد الذي ولد عام ١٩١٥ ومات متحيرا في باريس ليلة عيد الميلاد عام ١٩٤٦ وهو من طراز بودليير والياس ابو شبكة ومن المتأثرين بهما مباشرة خاصة ببودليير ، حيث ترجم بعض اشعاره وحيث عاش حياة بوهيمية متحررة مثله .

يقول من قصيدة له عنوانها « اللال » :

مللت العقل والدينا
وغنّ فالغنا سلوى
وهيا نرفع الكاس
على نخب التقي فيهم

شربنا الخمر للسلوى
وما للعود قد اضحى
فما للخمر تشجينا
لصحرا الحزن يحوتنا

فلا الالحان تنسينا

ولا الخمر تسلينا

الى ان يقول

ملنا جسمك الناري
ملنا لحمك السوردي

ملنا صدرك الناهد
ملنا حينا الفاسد

ويتهي قصيدته صارخا هكذا :

دعيني اعتزل نفسي
فاكف لمنة الرب
واضحك اذ ارى نحسي

امزق ستر احساسني
واحصد لمنة الناس
يعانق شامخ الياس

ويقول في احد مقطوعاته

عيناك ملؤهما ندم
نعم الشرهة والهوى
عيناك خدرتا همسو
عيناك بحسر من رؤى

عيناك ملؤهما ندم
ندم الطهارة والالم
مي ، فيت ليلى بدون هم
عيناك قسوة منتقم

وله قصيدة عن صديفته او عشيقته المومس ، قدمها اليها باهداء
هذا نصه « اليك يا ابنة الائم ارفع هاته الصلاة القصيرة » . نسّم
استهلها قائلا :

صديقي .. هل انت الاملاك
عائيني .. كيما يزول شعوري
زوديني بقلبة منك اخرى
انت .. ما انت غير رمز حنان
انت ضحيت نفسك اليوم كما
تسعدي الناس . ثم انت شقيه

ومن هذه المقتطفات من شعر العربي يتبين انه لو اضاف الى
موهبته الشعرية ، وحساسيته المفرطة ثقافة ادبية عميقة وصناعة
عروضية متقنة ، لكان في مكانته وشاعريته من مستوى الشابي مع
احتفاظ كل منهما بطابعه الخاص ومميزاته الادبية والاجتماعية

المرحلة الرابعة

وبوفاة محمد العربي عام ١٩٤٦ تكون قد طوينا المرحلة الثالثة،
مرحلة بين العربيين العاليتين ، ووصلنا الى المرحلة الرابعة ، التي
اطلقنا عليها مرحلة الحصاد الوطني ومعارك الاستقلال ، ذلك ان البذور
التي زرعتها جيل المرحلتين الاولى والثانية ، والنضال الذي قاده زعماء
وابطال المراحل السابقة ، قد بدأ يعطي مردوده في نفوس المواطنين
وفي حياتهم من تطور ويقظة ، ومن انتفاضات اجتماعية وثقافية وطنية
حتى اذا انتهت الحرب العالمية الثانية ، وقد كانت تونس من ميادينها ،
وعانت من ويلاتها وشروها ما هو فوق طاقتها ، عادت البلاد ترزح في
كلاكل الاستعمار من جديد ، وقد شنت الاعداء شمل زعمائها وخلصوا
عن العرش اول وآخر ملك من البايات ، اخلص لبلاد في عهد الحماية
والحكم الاجنبي . وساد القمع وتضاعف النضال حتى كانت الثورة
المسلحة وكان الاستقلال عام ١٩٥٦ ثم الجلاء عام ١٩٦٣ ، وكان الادب
خلال هذه المرحلة القصيرة التي لا تتجاوز عشر سنوات في حدها الادنى
 وخمسة عشر عاما في حدها الاعلى .. كان الادب ، ادب نضال وجهاد
وتحرر ودفاع عن حقوق الشعب وسيادة البلاد .
ولئن لم يكن انتاج هذه المرحلة من الوفرة والتنوع مثلما هو
الشان في المرحلة السابقة ، الا انه كان يمتاز بكثرة الادباء المساهمين

فيه وبينهم عدد كبير من اجيال المرحلتين الثانية والثالثة امثال حسين
الجزيري والشاذلي خزنة دار ، وزين العابدين السنوسي ، وابي
الحسن ابن شعبان ، ومحمد سعيد الخلصي ، والهادي المدني والهادي
العبيدي ومحمد الرزوقي واحمد خيرالدين والعربي الكبادي وسعيد ابوبكر
ومصطفى خريف والصادق مازبخ . وهناك اسماء اخرى حديثة
لمعت في عالم الادب وبينها جيل من الشباب لم تتح له الفرصة الكافية
ليظهر مواهبه الكامنة كلها ، وليعطي مرحلته التاريخية طابعه ومميزاته.
ذلك ان ظروف الحرب قد استمرت اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا من
عام ١٩٤٥ حتى اندلاع الثورة في عام ١٩٥٢ وهكذا كان وقته قصيرا ،
ومساهمته محدودة ، ومع ذلك فاننا نجد الوانا جديدة من الانتاج الادبي
وتطورا عهيقا في بعض انواعه الادبية ، واتصالا وثيقا بالثقافات
الاجنبية خاصة الفرنسية ، تبعا لتطور البلاد الثقافي، ولظهور جيل جديد
من الادباء المزدوجي اللغة امثال محمود السعدي ، وعبدالوهاب بكير ،
ومحسن بين حميدة واحمد اللغماني، وتوفيق بوغدير فضلا عن جيل الزيتونة
من شباب الادباء امثال محمد العروسي الطوي واحمد المختار الوزير ،
العربي ، ومحمد الرزوقي .

اما من حيث مظاهر الانتاج فان مجلة المباحث التي صدرت شهريا
بين اعوام ٤٤ و ١٩٤٨ تعتبر المرآة الاولى لادب هذه المرحلة ، وبعدها
تاتي مجلات الثريا ، والاسبوع ، والصرح ، والندوة ، فضلا عن
الاذاعة التي اصبح لها دور رئيسي منذ تاسيسها عام ١٩٣٨
في ابراز المواهب الجديدة ، وفي تنشيط الحياة الادبية .

ولعل اهم ما تميز به نثر هذه المرحلة هو الخطابة السياسية
والاجتماعية ثم ادب المقالة بانواعها ، والقصة بالوانها لا سيما القصيرة
وكذلك المسرحيات ، ثم الترجمة والنقل من الادب العالمي الى اللغة
العربية .

اما الشعر فقد حافظ على اوضاعه السابقة ، لدى شعراء الجيل
السابق ، وكان بينهم بالخصوص شعراء يحترفون المديح ، واشكال
الشعر القديمة .

اما جيل الشباب فانه كان الصق بالمجتمع وادق تعبيراً وتصويراً
لحياة الشعب وآلامه وامانيه .

وعلى يد هذا الشباب ولد الشعر الحر في نفس الوقت - تقريبا
- الذي تمت ولادته في العراق ، ولست ازمع لهم سبق ، ولكن
المعروف ان نماذج كثيرة من الشعر المتحرر من قواعد العامود ، بل
وحتى من قواعد العروض ، قد عرفت بين ادباء الثلاثينيات ، لا سيما
عند الشابي والبشروش ومحمد العربي ومصطفى خريف . اما جيل
هذه المرحلة ، فان محمد العروسي الطوي ، وابو القاسم محمد كرو ،
ومحمد العربي صمادح واخوه منور ، ثم محسن بن حميدة ، وفريد
غازي واحمد اللغماني كانوا - على تفاوت شاعريتهم - طليعة هذا
الشعر ، واسوق لكم نموذجا واحدا من قصيدة كتبها العروسي الطوي
بعنوان : « عيد ابن السجين » :

ابى ...

هل تعود

وبيزغ في البيت نجم السعود ؟

فقد طال منا انتظار الصباح

وعود البشير بجنى الكفاح

وعهد الخلاص

فحنان نقي - وانت البعيد -

قلوب حيارى ، وشمل بديد

ابسي .

هل عيد بكل مكان

وغرد في الكون طير الحنان

وعم السرور

سوى اهل بيتك لا يرحون ؟

اما الشاعر محمد العربي صمداح ، فيتحدث عن الرحيل قائلا :
عيسر الورد اشذاه

اريد المسير
ولكن ... لمن ؟
فجر الهجير
بكف الزمن
كفح السعير

★ ★

وافبل يحدل في راحته
ازاهير ضاحكة في يديه
يفازلها السحر من مقلته
فسارا ...
وسرت ..
ولكن لمن ؟ ..

فهل سيوح بذلك الزمن ؟

اما الشاعر محمد الشاذلي خزنة دار ، المتوفي ١٩٥٤ فيرني
سبعة من الشهداء صحابا الاستعمار بقصيدة ، نقتطف منها الابيات
التالية :

ابكي لفرقتهم وهم احياء
ما كان في كفي الحسام وانما
ارسلتها حصبا على مفتالهم
ساهر من قومي الذين بلوتهم
عربية الاحساس في نخواتها
سبعيا بكتهم تونس الخضراء
من تحت فكي حية رقطاء
فتربه ماذا يفعل الشعراء
ما ترتفيه الهمة الفساد
لله تلك النخوة العرباء

ويتحدث الشاعر العاطفي محمود بورقيبة المتوفي ١٩٥٦ عن
غراميات صباه فيقول من قصيدة عنوانها « لصوصية الحب » :

دائما اذكر ايام صباننا
حيث فوق العشب دشنا منانا
حيث كاللصين كنا نلتقي
وبطيننا جناح الفسق
واذا الاشجار تولينا الحنان
فاذا العالم سحر وافتنان

هكذا كنا لوصوا في الغرام
نتلافي تحت استنار الظلام

ومن هذا القبيل قوله

قالوا لها يبقون اغصابها
في كل يوم عنده صبوة
قالت : دعوه ، انه شاعر
من شانه التهيام في كل واد

وللشاعر الوجداني الرقيق احمد المختار الوزير ، قصيدة بعنوان
« الله » يقول فيها :

الا لا تسالني عنى
فما شعري سوى قلبي
غريرا كنت لا ادري
صباحي الثملة الظمى
وعن شعري وذكره
وذاك الحسب ملهه
ضليلا كنت ، ويلاه !!
.. وليلى السكر نشواه

افضت العمر لا ادري
.. افقت اليوم من سكري
ولكني على صحوي
عذيري في لظى شوقي
جمال دونه سحرا
جمال دونه عطرا
جمال دونه طهرا
جمال الله يا لهفي

مواضيه واخراه
ومن غيبي وبلواه
شديد الشوق اذكاه
جمال بت ارعاه
ضياء الفجر اسناه
عيسر الورد اشذاه
صفاء الماء انقاه
جلا في القلب معناه

* * *

ويقول الشاعر احمد اللغماني - وهو من ابناء واحات النخيل
بجنوب تونس الشرقي - يقول وقد رأى باحدى قرى ساحل الشمال التونسي،
نخلتين وحيدتين ترتشان في يوم شتاء واعصار :

جنعان قاما ههنا في مسربي
جنعان بل روحان من بلدي هنا
روحان في هذا المراء تقريبا
القاقما - يا صاحبي - فالتقي
القاقما - يا صاحبي - بمهجة
نحن الثلاثة ههنا في غربة
نزحت بنا الاقدار عن جناننا

قدفتها الواحات مفتربان
في هذه الاصقاع معتقان
وبهذه الاهوال يشتجران
بالذكريات منيرة ادجاسي
ميالة لكما وقلب حان
قدفت بنا الواحات للنسيان
مهد النخيل ومسرح الفزلان

اما الشاعر المرحوم مصطفى خريف المتوفي ١٩٦٧ فيتغنى بامجادنا،
ويهتف بوحدتنا في قصيدة طويلة ، اكتفي بمقطع منها وهو خاتمة
الطاف :

ايهذا العيد ، يا رمز الوفا
يا رجا الامال في وحدتنا
يا نهرا فاخرت ساعاته
انت فتح ، أنت نصر ، أنت من

يا سراجا في الدجى يا كوكبا
نحن ان اظللنا لن نغلبا
بجليل الامر ، مرحى ، مرجبا
دوحة الرضوان غصن شربا

عدلنا يا عيد عودا احمدا
.. ايهدا العيد بوركت فخذ
خذ من الريف ومن فاس وخذ
خذ الى المشرق ايات السولا

فزت يا عيد ، ونلت الاربنا
قالة من شعب خضراء الرى
من تلمسان ، وعم المغربنا
خذ الى العرب سلاما طيبنا

ابو القاسم محمد كرو

مصادر البحث :

- ١ - الادب التونسي في القرن الرابع عشر : لزين العابدين السنوسي
- ٢ - الحركة الادبية والفكرية في تونس لمحمد الغاضل بن عاشور
- ٣ - هذه تونس : للدكتور حبيب تامر
- ٤ - تاريخ ابن ابي الصياف
- ٥ - بيرم الخماس ، للزين السنوسي
- ٦ - محمود قابادو ، للزين السنوسي
- ٧ - مجموعة الدواوين المطبوعة لكثير من الشعراء التونسيين
- ٨ - عدد كبير من المجلات والصحف التونسية
- ٩ - وثائق خطية في مكتبي
- ١٠ - مجموعة كتب المطبوعة عن الادباء التونسيين ، مثل الحداد ،
الشابي ، كركباكه ..